صورة مدينة مليانة الجزائرية
في نص "في مليانة" لألفونس دودي

Image of the Algerian city of Miliana in the text "In Miliana" by Alphonse Dodi''

محمد مداور *

تاريخ الارسال	تاريخ القبول	تاريخ النشر

الملخص:

تسعى هذه الورقة البحثية إلى الكشف عن الصورة التي رسمها الرحالة/ الأديب الفرنسي ألفونس دودي *(Alphonse Daudet)* عن مدينة "مليانة" الجزائرية؛ والتي كانت تعدّ قطبا حضاريا عبر عصور تاريخية مختلفة. وذلك بتقديم قراءة نقدية تحليلية لنص "في مليانة" *(A Milianah)* محاولين الإجابة عن هذه الإشكاليات: كيف تجلت صورة مدينة مليانة في نص "ألفونس دودي"؟ وما هي الرؤية التي حمّلها نصّه؟ وما هي الجوانب التي استرعت اهتمامه؟ وكيف كان وصفه لها؟ وما هو موقفه منها؟ وهل تختلف هذه الصورة التي رسمها "دودي" في نصّه عن الصورة التي قدّمها الآخر الفرنسي عن الأنا الجزائرية؟

الكلمات المفتاحية: مدينة مليانة، علم الصورة، ألفونس دودي

Abstract:

This research paper seeks to reveal the image drawn by the French traveler/writer Alphonse Daudet about the Algerian city of Miliana. Which was a cultural pole through different historical eras. By presenting a critical and analytical reading of the text "A Milianah" trying to answer these problems: How was the image of the city of Milianah manifested in the text of "Alphonse Dodi"? What is the vision carried by his text? What aspects caught his attention? How was he described to her? And what is his position on it? Is this image that Dodi drew in his text different from the image presented by the French other about the Algerian ego?

Keywords: the city of Meliana, the science of the image, Alphonse Dodi

*** *** **

* جامعة الجيلالي بونعامة خميس مليانة

1- مقدمة:

تُعدُّ مدينة مليانة من أقدم المدن الجزائرية، إذ يرجع تاريخ تأسيسها إلى ما قبل الميلاد، وذلك بشهادة بعض الأدوات الحجرية الّتي عُثر عليها شمال هذه المدينة من خلال دراسات حفرية أجراها بعض الأجانب بالمنطقة في القرن التاسع عشر للميلاد، ويُقال أنّ الفينيقيين استوطنوا فيها فترة من الزّمن، لكن تأسيسها الفعلي كمدينة يرجع إلى العهد الرّوماني، إذ تأسست كمستعمرة على يد القائد الروماني "أوكتا فيوس" من بين تسع مستعمرات تنتمي لمملكة "موريطانيا القيصرية"، ستة منها ساحلية منها جيجل وبجاية وتنس "... وثلاث مستعمرات في داخل البلاد: تبكلات على بعد 92 كلم من الجنوب الغربي من عنابة، وحمام ريغة (Aqua Calidae)، ومليانة (Zachabar)...[1]

تمتلك مدينة مليانة تراثا ماديا، إذ تزخر بالعديد من المعالم والمواقع التاريخية الأثرية، كما تمتلك تراثا لا ماديا يتمثل في موروث العادات والتقاليد. وتحتل موقعا ثقافيا مميزا في كتابات الرحالة والأدباء العرب والأوربيين الذين كتبوا عنها، ولم يخفوا إعجابهم بسحر هذه المدينة.

2- الموقع الجغرافي لمدينة مليانة:

تحتل "مليانة" موقعا جغرافيا مميّزا على خارطة الجزائر، فهي مدينة داخلية تقع بين سلسلة جبال الونشريس جنوباً وجبال الظهرة شمالاً، وتقع فلكيا بين خطي عرض 29°36° شمالا، وخطي الطول2°21° غربا، وهي تابعة إداريا لولاية عين الدفلى باتجاه الشمال، وقد بنيت أسفل منحدر جبل "زكار"، بارتفاع 750م عن سطح البحر. تبعد مليانة عن الجزائر العاصمة بـ120كلم، وتبعد عن ولاية الشلف بـ100كلم، وعن مقر الولاية بـ 30كلم، يحدّها من الشمال بلدية عين التركي وبلدية بن علال، ومن الشرق بلدية عين التركي، ومن الغرب بلدية بن علال، ومن الجنوب بلدية خميس مليانة وبلدية عين السلطان، لتتخذ المدينة شكلا بيضويا، وتبلغ مساحتها حوالي 23.773 هكتارا.[2]

3- مدينة مليانة الجزائرية في كتابات الأدباء والرحالة العرب والأوربيين:

مدينة مليانة مدينة عريقة، ضاربة بجذورها في أعماق التاريخ. أعجب بجمالها الساحر كل من زارها، وكتب عنها جغرافيون ومؤرخون ورحالون وأدباء جزائريون وعرب وأوربيون. مرّ بها ابن بطوطة وذكر ذلك في رحلته إلى الحج وأقام بها عشرة أيام، ومرّ بها المغربي محمد العبدري وخصّها بوصف شاعري في رحلته الموسومة بـ "الرحلة المغربية"، وصفها زكريا القزويني في كتابه "آثار البلاد وأخبار العباد" وأجاد في وصفها. والشريف الإدريسي، وكذلك زارها ابن خلدون وكتب عنها في تاريخه، وزارها الحسن بن محمد الوزان الفاسي المعروف بالأسد الإفريقي (ليون الإفريقي) وأرّخ لها في كتابه وصف إفريقيا.

كتب عن مليانة أيضا، المؤرخ الجزائري عثمان خوجة في كتابه المرآة ووصف مناخها بالصحي، وذكرها أصحاب التراجم شأن الشيخ الجيلالي بن عبد الحكم في كتابه "المرآة الجلية" في بداية القرن العشرين، وكذلك أرخ لها الشيخ عبد الرحمن الجيلالي في كتابه "تاريخ المدن الثلاث – الجزائر، المدية، مليانة-". وعّدها الأديب والرحالة رابح خدوسي من مدن الجمال، حيث كتب عنها نصا يصف فيه جمالها؛ ووضعه بجانب نصوص رحلية تصوّر مدنا أوربية كان قد زارها.

هذا عرض مختصر لأهم الكتابات الجزائرية والعربية التي ذكرت مدينة مليانة تأريخا أو وصفا، أما كتابات الأوربيين عن المدينة فهي عديدة

أيضا. فقد زار كتاب ورحالة أوربيون مليانة قبل الاحتلال وأثناءه وكتبوا عنها، ولم يخفوا إعجابهم بها، ولاسيّما طبيعتها الخلابة وخيراتها المتنوعة. فمن الرحالة الإنجليز نجد الرحالة "شو" الذي شاهد كثيرا من أطلال مليانة وآثارها الرومانية.[3] وقد زارها أثناء الاحتلال الرحالة "ل ج سيقوين" الذي أعجب بأخلاق الجزائريين وعفّة المرأة الجزائرية. وكتبت عن مليانة "بيتم إدواد" التي زارت مليانة سنة 1866 وشبهتها بالبحيرة الخضراء التي تغمر النفس بالبهجة والحبور.[4] وكذلك أرّخ لها الرحالة الإسباني "مارمول كربخال" في كتابه "إفريقيا" وأشار إلى بعض الصناعات التقليدية التي يمارسها سكان مليانة مثل: النسيج وصنع السروج والأكواب الخشبية،[5] وزارها من الألمان العالم والطبيب "ج. أو هابسترايت. في إطار مهمة علمية استكشافية، و"أدولف شترال" مع بداية الاحتلال ووصف آثارها التي تقادمت، وتحدّث عن معامل الأسلحة التي نقلها الأمير عبد القادر إلى المدينة.[6]

وبحكم الاحتلال الفرنسي للجزائر فقد كانت مليانة قبلة لكتاب ورحالة فرنسيين بغرض العمل أو السياحة أو العلاج أو البحث والاستكشاف. ومن هؤلاء نذكر: الروائي والقاص الشهير "جي دي موباسان" الذي زار الجزائر مابين 1881, 1890، و"ألفونس دودي" الروائي والمسرحي الساخر، وهو يعدّ من أشهر الكتاب الفرنسيين في عصره، والذي زارها للاستشفاء من مرض السلّ، أقام بها مدّة، وكتب عنها نصا سرديا (قصة) حمل عنوان "في مليانة" (A Milianah).[7] هذا النص الأخير سيكون محل دراستنا في هذا البحث إذ سنسعى إلى الكشف عن الصورة التي رسمها الرحالة والأديب الفرنسي عن مدينة مليانة. وقبل الولوج إلى التحليل سنقدم تعريفا موجزا لكاتب / مؤلف هذا النص.

4- صورة مدينة "مليانة" في نص ألفونس دودي:

4-1- التعريف بالكاتب: ألفونس دودي (Alphonse Daudet)كاتب فرنسي؛ روائي ومسرحي ساخر، ينتمي إلى المدرسة الواقعية، ولد في مدينة نيم الفرنسية سنة 1840. زار الجزائر سنة 1861م للاستشفاء من داء السل، عملا بنصيحة طبيبه، وقضى ثلاثة أشهر زار فيها منطقة الجزائر والبليدة، وأقام مدة في مدينة مليانة، وزار المناطق المجاورة لها، وكتب من وحيها عدة نصوص قصصية ومذكرات سفر، نشرت في الصحافة، ثم ظهر بعضها في "رسائل من طاحونتي" (1873) وبعضها في "حكايات الاثنين" (1873)، وقد استوحى من رحلته هذه رواية كاملة بعنوان "تارتاران دو تارسكون" (1872 م).[8] توفي "دودي" في باريس سنة 1897 م.

4-2- دلالة العنوان:

نشر نص "في مليانة، مذكرات سفر" (A Milianah, notes de voyage)[9] الذي كتبه "ألفونس دودي" ضمن كتابه " رسائل من طاحونتي" (Lettres De Mon Moulin) وقد شغل هذا النص من الكتاب ما يقارب العشر صفحات. ويتضح لنا أن العنوان الرئيسي يحيل إلى مكان جغرافي معلوم هو مدينة مليانة؛ وهي مدينة جزائرية معروفة لها تاريخ عريق، وأمّا العنوان الفرعي "مذكرات سفر" فيدلّ على أنّ هذا النص ينتمي إلى الحكي الحقيقي؛ إذ هو عبارة عن مذكرات أو ملاحظات سجلها الكاتب أثناء زيارته إلى مكان معين، وهو ما يظهر في العنوان الرئيسي "في مليانة". يوحي العنوان بشقيه: الرئيسي والفرعي بأن الكاتب سيصف سفره، ويروي لنا ما شاهده في رحلته إلى تلك المدينة، ومن هنا لا نجد صعوبة في تحديد الجنس الأدبي الذي ينتمي إليه هذا النص

السردي الذي كتبه "دودي"؛ إنه ينتمي إلى أدب الرحلات.

تنتمي الرحلة إلى الخطاب السردي، وبما أن السرد لا يستغني عن الوصف، فهذا الأخير يشغل الحيّز الأكبر في خطاب الرّحلة، فهو جوهرها والأساس الذي يقوم عليه بناؤها. ذلك أنّ الوصف آلية مكانية، في حين أنّ السرد آلية زمانية، ففي الرحلة ينتقل الراوي الشخص فيبئر لنا ذاته (بؤرة الحكي) في الفضاء الذي تنتقل فيه. إنّه راوٍ متماهٍ بمرويّه ينقل لنا مشاهداته عن طريق السرد، تارة وعن طريق التقرير الوصفي تارة أخرى.[10]

إنّ الإشكال الأكبر الذي يواجه هذا النوع من الكتابة يتمثل في صعوبة التأكد من المرجع الواقعي أو تحديده. ذلك أنّ الكاتب هو راوٍ يحكي عن تجربته الذاتية، فخطاب الرحلة يجمع بين الموضوعية والذاتية، بين التوثيق والتخييل، إنّه خطاب يمزج بين الحكي الحقيقي والحكي التخييلي. ومن ثمّ فالرحلة فعل حقيقي واقعي؛ والأديب في أدب الرحلة يستطيع التعبير عما هو حقيقي و يوثّق لنا الأحداث، ولكنّه في الوقت ذاته يمكن أن يلعب لعبة تخييلية فيمزج بين التوثيق والتخييل لإضفاء بعد جمالي على نصه.

يتجلى لنا من قراءتنا لنص "في مليانة" (A Milianah). أنّ الكاتب ألفونس دودي كان أمينا إلى أبعد الحدود، فكثير من القرائن الوصفية التي ذكرها في نصّه تؤكد واقعية ما كتب، هذه الواقعية هي التي ستكون محلّ اهتمامنا، من خلال البحث في الصورة التي رسمها عن فضاءات المدينة ومعالمها، وسكانها وثقافتهم، وعادات أهلها وتقاليدهم، والكشف عن موقف الكاتب من وراء ذلك كله؛ باعتباره يكتب عن الآخر المختلف ويراه بعين الأنا المغايِرة.

5- موقع المدينة، وسحر المكان:

تتمتع مدينة مليانة بموقع جغرافي استراتيجي فقد بنيت في سفح جبل زكار، وقد أعجب بجمالها الساحر ومناظرها الطبيعية الخلابة كل من زارها، وقد سجل هذا الإعجاب رحالون عرب وأوربيون. ولم يشكّل "ألفونس دودي" استثناء في هذا السياق؛ حيث يقول في فاتحة نصه: "في المرة سآخذكم لقضاء نهار في مدينة صغيرة جميلة من مدن الجزائر، على بعد مائتين فرسخ أو ثلاث مئة فرسخ من الطاحونة... كان المطر ينذر بالسقوط، والسماء رمادية، ومرتفعات جبل زكار تتدثّر بالغيوم. كان يوم أحد حزين."[11]

يشير الكاتب في هذا المقطع السردي إلى المكان الذي ارتحل إليه وهو مليانة؛ وهي مدينة وليست قرية، وهو ما يدلّ تاريخيا على المكانة الحضارية لمليانة والتي كتب عنها مؤرخون عرب وغربيون، ثمّ يحدد الكاتب موقعها الجغرافي بذكر المسافة بينها وبين الطاحونة (وهي الطاحونة التي أطلق اسمها على كتابه)[12] بمائتين أو ثلاث مئة فرسخ، والفرسخ من مقاييس المسافة قديمًا، والجمع فراسخ، وتشير أغلب المراجع إلى أن الفرسخ يعادل ما بين أربعة وستة كيلومترات في النظام الدولي الحالي.

نلاحظ أيضا من المقطع السردي السابق أنّ الكاتب يعبّر عن إعجابه بالفضاء الطبيعي لهذه المدينة الصغيرة الجميلة، ويبدي تفاعلا وجدانا معها.[13] يتجلى هذا التفاعل في وصفه لطقس ذلك اليوم وأجواء المدينة اللطيفة بأسلوب شاعري وتصوير دقيق لطبيعتها الساحرة. إذ يقول: "أقفلُ راجعا إلى الفندق، أسير بمحاذاة الأسوار، أشم رائحة أشجار البرتقال والعفص، التي كانت تصعد من السهل، وكان الجو لطيفا، والسماء صافية تقريبا... كل ذلك سيرفرف تحت شعاع نحيل من

ضوء القمر عندما تهبّ نسمة خفيفة من نسمات الليل"[14]

يعد هذا المقطع السردي بمثابة نص توثيقي للطبيعة والنشاط الزراعي (الفلاحي) والغطاء النباتي في منطقة مليانة في تلك المرحلة التاريخية، حيث كانت منطقة مليانة موطنا لإنتاج أنواع كثيرة من الفواكة، مثل: البرتقال، والليمون، والسفرجل والبرسيمون والأجاص والجوافة... وقد كتب عن ذلك كتاب ورحالون ممن زاروا مليانة، ولا يزال كبار السن -ممن التقيت بهم من أهل المدينة- يذكرون تلك الروائح العطرة التي كانت تصعد قبل عقود قليلة من منطقة الخميس (خميس مليانة) الواقعة في سهل الشلف، ومنطقة زوقالة الواقعة جنوب مدينة مليانة ؛ روائح أزهار أشجار البرتقال واليوسفي والليمون التي كانت تزرع هناك بكثرة. دون أن ينسوا الغطاء النباتي الكثيف والمتنوع الذي كان يحيط بالمدينة. وبكلامنا عن الطبيعة التي تمتاز بها منطقة مليانة؛ فقد أشار "دودي" في نصه إلى قصة غريبة تؤكد وجود حيوان الفهد في غابات زكار القريبة من المدينة. يقول: "كان الجميع يتحلّقون حول رجل من الأهالي، طويل القامة، شاحب، مزهو بنفسه، ملتفٌّ في برنس أسود. كان هذا الرجل قد تصارع قبل ثمانية أيام في جبل زكار مع فهد، إلا أن الفهد استطاع أن الفهد استطاع أن يأكل نصف ساعد الرجل..."[15]

لقد حدّد الكاتب في افتتاحية نصه السردي الزمن الذي قام فيه بجولة في المدينة؛ وهو يوم أحد، ويبدو لنا من خلال القرائن النصية أن هذا اليوم كان في بداية فصل الخريف سنة 1861. ذلك أنّ إشارة الكاتب إلى وجود فاكهة الرمان دليل على أن زيارته/ رحلته كانت في بداية فصل الخريف؛ حيث ينضج الرمان في شهر أكتوبر ونوفمبر، أما ذكره لفاكهة التين الشوكي؛ فهي تكون متوفرة في فصل الصيف (جويلية وأوت)؛ وهناك نوع من التين الشوكي ينضج في فصل الخريف يسمى لدى سكان المنطقة "الخرفي" نسبة إلى الفصل المذكور. ولعل هذا النوع من التين الشوكي هو المقصود في نص دودي. أما رياح السيروكو الساخنة التي أشار إليها فتأتي في الصيف؛ وعادة ما تأتي بأمطار محملة بالأتربة والرمال في بداية فصل الخريف. من هذه القرائن الوصفية تتجلى لنا واقعية السرد في نص دودي، وتصويره الدقيق لمشاهد رحلته وتوثيقه لها.

6- صورة العمران، ومعالم المدينة:

يصور الفونس دودي في نصّه بعض المعالم العمرانية التي شاهدها عند تجواله في مليانة. وهو ما يؤكد أنّها كانت مدينة تتوفر على كافة المرافق، ذلك أن المحتل كان يحرص على توفير كل احتياجات أبنائه من المعمرين في المكان الذي يستقرون فيه. فقد اشتملت المدينة على فندق وكنائس، ومكتب عربي وثكنة عسكرية تضم الجنود الفرنسيين والصبايحية وهم جنود جزائريون منخرطون في صفوف الجيش الفرنسي، وساحة كبيرة، وهناك أسوار تحيط بالمدينة. يقول:

"في غرفتي الصغيرة بالفندق، وعبر النافذة المفتوحة على الأسوار العربية كنت أحاول أن أشغل نفسي بإشعال السجائر، وكانت مكتبة الفندق كلّها وضعت تحت تصرفي... ودقّت الثانية في ساعة البلدية — البلدية التي هي أصلا عبارة عن ضريح أحد الأولياء الذي أشاهد من موقعي هنا جدرانه الواهية البيضاء.. يا لشقاء الولي التعس. من كان في استطاعته أن يتكهّن له قبل ثلاثين عاما أنه سيحمل ذات يوم في صدره إطار اسم البلدية الضخم، وأنه سيعطي كل يوم أحد لكنائس مليانة إشارة دق النواقيس؟ دنق دانق. ها هي النواقيس تنطلق، وسيطول علينا دقها."[16]

يتجلى لنا من خلال هذا المقطع السردي أنّ المدينة كانت تتوفر على معالم ومبان يعود تاريخها إلى العهد العثماني، ولازال بعضها موجودا. ولعل ساعة البلدية التي وصفها دودي هي تلك الموجودة إلى الآن، وقد وضعت على صومعة مئذنة مسجد البطحاء في وسط المدينة، وهو مسجد يعود للفترة العثمانية. ثمّ إنّ تحويل المسجد عن وظيفة الأصلية يدل على حملة التنصير التي كانت تشنّها سلطات الاحتلال من أجل طمس هوية وتاريخ المجتمع الجزائري وثقافته. ويتضح أن أسلوب الكاتب هنا يتسمّ بنبرة فيها الكثير من الاستعلاء، وكأنّه يحدّث القارئ عن انتصارات فرنسا في المدينة؛ حين يرسم صورة ساخرة للضريح (أو المسجد) وقد تحول من رمز للمسلمين إلى رمز للمسيحيين.

ومن معالم المدينة التي ذكرها "دودي" في سرده مسجد مليانة، وفناء موريسكي مجاور للمسجد، وبيت "سيد عمر" القاضي العرفي الذي زاره الكاتب وتعشى عنده؛ يقول الكاتب: "كان العشاء عند سيد عمر فاخرا، وكانت قاعة الأكل تفتح على فناء موريسكي أنيق، حيث تغني به حنفيتان أو ثلاث حنفيات فوارة."[17]

يبدو من هذا الوصف الدقيق لبيت سيد عمر أنه يعود للعهد العثماني ولعل البيت الموصوف هو دار الخلافة التي أقام بها الأمير عبد القادر (ويعود تاريخ بنائها إلى العهد العثماني، ولا تزال قائمة إلى يومنا هذا (وهي اليوم متحف الأمير عبد القادر الذي يقع في وسط المدينة)، وربما يكون سيد عمر قد استولى عليه بعد خروج الأمير عبد القادر وجيشه من مدينة مليانة.

يواصل الكاتب تجواله في المدينة ويستمر معه سرد المشاهد التي رآها هناك. فبعد انصرافه من بيت سيد عمر يمرّ بالمسرح. يقول: "ها أنا ذا أمام المسرح.. لندخل نتفرج بعض الوقت. كان مسرح مليانة في الأصل مخزنا للعلف، حوّل كيفما اتفق إلى قاعة للعرض. تضاء القاعة وقت الاستراحة بمصابيح زيتية تقوم مقام الثريات... ويحيط بالقاعة ممرّ مظلم، غير مبلّط، يعطيك إحساسا بأنّك في الشارع، حيث لا فرق بين الاثنين."[18]

يعد هذا المقطع الوصفي لمسرح مليانة شهادة تاريخية توثّق لوجود مسرح بمدينة مليانة في وقت مبكر من الفترة الاستعمارية، وهو على بساطته يفي بالغرض، لأنّ هذا الفضاء الثقافي قد تمّت إقامته من أجل تلبية احتياجات ورغبات المعمرين/ المستوطنين الفرنسيين. فالسلطة الاستعمارية تسهر على خدمتهم، وقد بنت لهم الكنائس كما أسلفنا، حتى لا يشعروا بالغربة بل ليحسوا وكأنهم ببلدهم؛ فلا فرق. أما الجزائريون وهم السكان الأصليون فلا اعتبار لهم.

كل هذه المعالم التي ذكرها "دودي" تدل على الأهمية التي أولتها السلطات الاستعمارية لهذه المدينة، إذ إنّ موقعها الاستراتيجي سيمكّنها من السيطرة على المناطق المجاورة. أما ذكره للأسوار العربية، أو المباني التي يسمّيها الموريسكية فهي بمثابة شهادة تدلّ على تاريخ وتراث المدينة وحضارة المدينة، وتاريخها العريق الذي امتد لعصور تاريخية متتالية: العهد الروماني ثم العصر الإسلامي من الفتح إلى العصر الأندلسي إلى العهد العثماني. وهنا يسقط الادعاء القائل بأن فرنسا احتلت الجزائر حاملة رسالة حضارية، فقد كانت هناك حضارة قبل الاحتلال، ومدينة مليانة شاهدة على ذلك.

7- صورة العادات التقاليد في المجتمع الملياني:

تشكّل العادات والتقاليد إحدى المظاهر الثقافية السائدة في المجتمع، وقد نقل لنا الكاتب "ألفونس دودي" صورة مختصرة عن بعض العادات والتقاليد والأخلاق التي امتاز بها المجتمع الملياني في تلك الفترة، ومن ذلك خلُق الحياء الذي يتميز به المجتمع الجزائري، وهو خلق حثّت عليه الشريعة الإسلامية. فقد نقل الكاتب ردّة فعل "سيد عمر" عند سماعه لشتائم لفظية كان قد وجهها مستوطن اسباني لآخر يهودي في حضرته، يقول: " ... ومن بينها لفظ فرنسي لا يليق بنا يا سيدي أن نردّده هنا، لبذاءته، وهو ما جعل ابن سيد عمر، الذي كان يفهم الفرنسية، يحمر خجلا لسماعه في حضور والده، ويغادر المكان – ولنلاحظ هنا إحدى سمات التربية العربية."[19]

يعدّ هذا المقطع السردي بمثابة شهادة حية على إحدى صفات المجتمع الجزائري والتي مازالت موجودة وهي الاستحياء والحشمة في حضرة الوالدين، والكاتب يقرّ بأن هناك سمات إيجابية أخرى في التربية العربية وليس الحياء إلا أحدها.

يصوّر الكاتب أيضا ممارسات سلوكية ذات الطابع الديني. يقول:

يوثق هذا المقطع الوصفي لطقوس دينية كانت منتشرة بكثرة في الماضي بسبب الجهل من جهة، والطرق الصوفية التي ساعدت على انتشارها من جهة أخرى. وهي طقوس دينية حرمتها الشريعة الإسلامية لأنّها شكل من أشكال الاستعانة بغير الله، فهؤلاء النسوة يستعن بالولي (وهو في ضريحه) فما رآه دودي هو ضريح ولي من الأولياء وليس معبدا كما يظنّ. ولا تزال مثل هذه الممارسات الدينية (الطقوس) موجودة في بعض المناطق الجزائرية إلى يومنا هذا، مما يؤكد مصداقية وواقعية المشاهد التي نقلها دودوي في نصه.

يصوّر الكاتب جانبا آخر من ثقافة المجتمع الملياني يومئذ؛ وهو ما تعلق بأصناف الطعام والمأكولات إذ يصف العشاء الذي دعي إليه في بيت سيد عمر: "كان العشاء عند سيد عمر فاخرا (...) كان عشاء تركيا ممتازا (...) فمن بين أصناف أكل عديدة، لاحظت دجاجة باللوز، وكسكسا بالفانيل، ولحم حلو، ثقيل بعض الشيء، ولكن مذاقه رفيع، وبسكويت بالعسل يسمى لقمة القاضي(...) عند انتهاء العشاء انتقلنا إلى غرفة مضيفنا، حيث جيء لنا بأنواع من المربى وبالغلايين والقهوة."[20]

يبدو أن الكاتب قد أعجب بالعشاء وما تضمّنه من أطعمة متنوعة، حيث وصفه بالفاخر والممتاز، ولا تزال أغلب هذه الأطباق (الأكلات) التي ذكرها "دودي" حاضرة ومعروفة لدى بعض العائلات المليانية إلى يومنا هذا. أمّا عن أنواع المربى التي ذكرها الكاتب فهي تعدّ من التقاليد المتوارثة في مدينة، حيث عرف أهل مليانة بصناعة المربى بطريقة تقليدية (وهو يسمى عندهم المعجون)؛ خصوصا وأن المنطقة معروفة بإنتاج أنواع عديدة من الفواكه.

8- تعدّد الأعراق، وصورة اليهود في مدينة مليانة:

يسرد علينا الكاتب في نصّه الرحلي تفاصيل صراع بين قايد بني زقزوق ويهودي من مليانة بسبب خلاف حول قطعة أرض. وقد حضر الاثنان لعرض القضية على قاضي الصلح، ويتشعب السرد ليقود الكاتب إلى نقل صورة عن الأعراق المختلفة التي كانت تستوطن مدينة مليانة في الفترة التي زارها، فبالإضافة إلى سكان المدينة من العرب أو الأهالى بتعبير الكاتب، والمعمرين الفرنسيين (مدنيين وعسكريين). كان هناك مستوطنون من جنسيات مختلفة: اليهود،

والمالطيون والماهونيون، والإسبان، والزنوج. إنه تنوّع إثني يجعل مدينة مليانة تبدو وكأنّها جنّة موعودة.

يوثق دودي من خلال ذكره لهذا التعدد الإثنوغرافي بمدينة مليانة في الفترة التي زارها لظاهرة الاستيطان التي قامت بها سلطة الاحتلال الفرنسي، حين أحضرت أجناسا بشرية من مختلف البلدان إلى المدينة. وهو يدعّم ما ذهب إليه بعض المؤرخون الذين أشاروا إلى هذه الظاهرة. ربما لخدمة المعمّرين الفرنسيين سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

شغل الحديث عن اليهود في نص "دودي" حيزا كبيرا، لأنه حاول أن يرصد للقارئ تفاصيل المحاكمة التي كان أحد طرفيها يهودي من مليانة كما أسلفنا. وتبدو الصورة التي رسمها الكاتب عن اليهود سلبية قاتمة، بل وقبيحة للغاية؛ فهم منبوذون من قِبل الجميع على اختلاف أجناسهم، ويبدو وكأنهم لا يستطيعون التعايش مع الآخر الذي يخالف دينهم، فهم يسكنون حيا خاصا بهم؛ هو الحي اليهودي[21] الذي يشتمل على دكاكين يمارسون بها بعض الحرف التقليدية؛ فمنهم طرزيون، وبزّازون، وصانعوا البرادع...(ص61).

يبدو اليهودي من خلال النص ذليلا يتحمل الذلّ والإهانة من أجل قضاء مصلحته، وقد قبّل حذاء سيد عمر، ثم دفع برأسه إلى الأمام، واقعا على ركبتيه، وضم إليهما يديه. (ص58) وكان جمهور السامعين ساخطا على اليهودي (ص59)، ويشير الكاتب أنّ سكان مدينة مليانة على اختلاف أجناسهم "كانوا كلهم متحدين في كره اليهود، ومسرورين برؤية واحد منهم يعامله تلك المعاملة السيئة." (ص59) وحتى سيد عمر الذي يفترض به أن يكون عادلا ومحايدا بحكم أنه قاض يفصل في المنازعات بالعرف -وقد اتخذه أهل مليانة حكما بينهم- انخرط في موجة كره اليهود، فقد كان يتطلع إلى اليهودي في مكر - حين كان يدلي بشهادته- وعندما تعرّض اليهودي للضرب والشتم والإهانة في حضرته، بدا مسرورا، ولم يبد أي معارضة أو استياء من هذا السلوك.[22]

يؤكد لنا "دودي" في مشاهد أخرى هذه الصورة السلبية التي رسمها لليهود؛ حين يسرد علينا الوقائع التي تلت خروج اليهودي من دكان سيد عمر، فقد لحق به ذلك المستوطن الاسباني وضربه، فراح يبحث عن شاهد حتى وإن لم ير هذا الشاهد شيئا... وهنا بصق زنجي في وجهه. ترجى اليهودي الحاضرين ولكن لا أحد قبل بأن يشهد على ما رأى. بل إنّ الحاضرين في دكان سيد عمر كانوا "يضحكون ملء أفواههم، فضربُ اليهودي تسلية حقيقية."[23]

تتعمق هذه الصورة السلبية أكثر عندما يتبنى دودي الموقف نفسه من اليهود، فيضم صوته إلى صوت الحضور الكارهين لليهود، ويعبّر عن ذلك بأسلوب ساخر ينمّ عن احتقار وكره هذه الطائفة، فهو يصف لنا الضجيج الذي شاهده في الحي اليهودي، فقد أحدث اليهود ضجيجا واضطرابا كبيرا على خلفية حادثة الضرب تلك. يقول: "وتقدم نحوي قزم قبيح المنظر، تفوح منه رائحة القطران والجلد القديم."[24] فالكاتب يرسم هنا صورة سلبية ساخرة تسعى إلى تقزيم اليهود والحطّ من شأنهم، فاليهودي قبيح المنظر، كريه الرائحة.

يتكرر موقف الكاتب من اليهود حين يقرّ بأن اليهود ماديون ولا يهمهم سوى جمع المال؛ فالشيخ اليهودي المسن الذي ضُرب وأهين "لم يكن هناك شيء يمكن أن يعيد إليه عافيته إلا تعويض سخي." (ص61) وتتجلى هذه الصفة المادية كذلك في تعليقه على فتاتين يهوديتين قد لفتتا انتباهه على خشبة مسرح مليانة، إذ يصرح الكاتب

باستهزاء أن الهدف من ممارسة اليهود لفن التمثيل هو كسب المال والثراء الذي يمكنهم من السلطة والنفوذ. (ص68)

9- ثنائية الأنا والآخر(الجزائري) في نص دودي:

يمثل صوت الكاتب "ألفونس دودي" صوت الأنا المتكلمة في النص. وهو كاتب ينتمي إلى المرحلة الكولونيالية فهل تختلف رؤيته للآخر (الإنسان الجزائري) عن رؤية كتّاب تلك المرحلة من الفرنسيين؟ خاصة وأنّنا نجده لا يطلق اسم "جزائري" على السكان الأصليين لمدينة مليانة، وإنمّا يستخدم لفظ "عربي" أو "الأهالي" شأن كثير من الكتاب الفرنسيين.

تكشف القراءة المتأنية لنص في مليانة" عن رؤية الكاتب المتعالية ضمنها نصها في شكل تلميحات في أغلب المواضع، فقد ركز في وصفه للسكان الجزائريين (العرب) على الملامح الخارجية (المظاهر)، ولم يهتم بمخبرهم، كأن يصف أخلاقهم ومعاملتهم مثلا، أو يشير إلى الأسباب التي جعلته الآخر (الجزائري) يبدو في الحالة التي رآهم عليها. ففي وصفه لإطار ساعة البلدية التي تعطي دقاتها إشارة لكنائس مليانة، وقد كانت ضريحا لأحد الأولياء قبل الاحتلال الفرنسي (ويرجّح أنه كان مسجدا)، يشير إلى تعاسة وشقاء هذا الولي (الميت أصلا). إنّها صورة تعبّر عن سخرية واستهتار بتاريخ ومقدسات الجزائريين المسلمين وحضارتهم وهويتهم، فالضريح يرمز إلى تاريخ الجزائريين الذي قبرته فرنسا المحتلة وأقامت على أنقاضه سلطتها الممثلة في مبنى البلدية.[25] أما العرب الجزائريين الذين رآهم أمام المكتب العربي، فقد كانوا يلبسون أثوابا رثّة -وبعضها متسخ- ملتفين في برانسهم. تنبعث منهم رائحة الجلود الشرية(ص63). إنّه يجسّد هنا صورة سلبية أخرى للآخر الذي أثقله الظلم والبؤس والحرمان، فأنّى له أن يهتم بمظهره، لكن الكاتب يصمت عن ذلك كلّه ويتجاهله.

بالمقابل راح الكاتب يمدح ويصف ترجمان مليانة، وهو فرنسي يمثل الأنا، فقد كان يحسن ارتداء اللباس. طفق الكاتب يصف بدلته الرائعة، وشكله الأنيق، ويعدد مواهبه، ثم يضيف أنه كان جنديا رائعا من جنود الخيالة. (ص63) إنه نموذج عن الجندي الفرنسي، ليتبيّن لنا أن الكاتب يمثل صوت الأنا المتعالية والمتفوقة والمتحضرة، إنه لسان حال السلطة الفرنسية في الجزائر، فلا نتوقع منه أن ينصف الآخر في كتاباته.

تتعمق هذه الصورة السلبية للآخر عندما يصور لنا مشهدا لمجموعة من المتشردين -أو حثالة المسلمين كما يصفهم- وهم ينامون متكدسين، إنهم يتقاسمون الفناء الموريسكي القديم مع الكلاب السلوقية الضالة، ثم يرسم لنا لوحة فنية من المكان/ الفناء ذاته؛ حيث كانت هناك امرأة متشردة في مقتبل العمر، جميلة تقريبا، رقبتها وساقاها مكشوفتان، كانت ترضع طفلا صغيرا عاريا تماما بيدها، وبيدها الأخرى تدقّ الشعير في هاوون من الحجر، وهي تردد أغنية حزينة تحت وابل المطر. (ص65)

إنّ هذه المشاهد/ الصور البائسة والمؤلمة التي شاهدها الكاتب لم تحرك مشاعره الإنسانية، ولم يتساءل عن سبب مأساة هؤلاء وحرمانهم، أليس هو المحتل الفرنسي الظالم الذي أخذ حقوق هؤلاء؟ إنّه يسكت عن ذلك كلّه لأنه يمثل الأنا الناطقة باسم المحتل، ولا يريد أن يفضح ممارساته.

ولم يسلم حتى الأطفال في المدينة من سخرية وتهكّم "دودي"، إذ ينقل لنا صورة لأطفال عرب جزائريين يلعبون، فيصفهم بأنهم يصيحون صياحا شرسا. (ص55) وكأنه لم ير أي أشياء إيجابية

في هذا المشهد الذي يرسمه الأطفال ببراءتهم ولم يركّز إلا على الجانب السلبي وهو صوتهم المرتفع، لقد كان يتقصّد السخرية من الآخر المختلف.

تتأكد هذه الرؤية الكولونيالية التي يتبناها ألفونس دودي في وصف الآخر/ الجزائري عندما يقدم لنا صورة إيجابية لسيد عمر؛ الذي دعاه ليتعشى عنده، وسيد عمر هو جزائري، كان قد وضع نفسه في خدمة فرنسا. ويقدمه الكاتب على أنه تركي، فهو ابن أحد دايات الجزائر، وهو يعيش متنعما، يحيا حياة برجوازية رغيدة، يتمتع بطيب المأكل والمشرب ويرتدي الملابس الفاخرة، ويشرب الخمر ويتمتع بالنساء. (ص56، 66)

لقد كان الكاتب يتكلم بلسان السلطة الاستعمارية إذ يقول عن سيد عمر: "فلم يكن لدينا جندي أشرس منه طوال حربنا مع الأمير [عبد القادر]." (ص56) وهنا يشعر القارئ أن صوت الكاتب هو صوت المحتل ذاته. وقد بدا وكأن الكاتب أعجب بهذا الرجل الخائن لبلده، إنّه يرسم له صورة إيجابية، لأنه رمز للخنوع والخضوع لسلطة المحتل، رمز للتفاني في خدمة فرنسا. لذلك استحق المدح والإطراء، إنّه النموذج المغري الذي تودّ فرنسا تسويقه لأهالى مليانة حتي لا يقاوموا، ويقبلوا بالسلطة الجديدة (المحتل الفرنسي).

وتتضح الازدواجية في تعامل الكاتب مع الآخر من خلال الصورة التي رسمها للأمير عبد القادر في نصه، فهو يتبنى رواية سيد عمر عن الأمير فيقول "... انتهى إلى الاختلاف مع الأمير [عبد القادر]، وأعلن خضوعه للسلطة الفرنسية. ولكي ينتقم الأمير منه دخل إلى مليانة في غياب سيد عمر، ونهب قصوره وقطع أشجار برتقاله، وأخذ خيوله ونساءه، وسحق رقبة أمّه تحت صندوق كبير" (ص56) وهذه طبعا رواية عدوّ الأمير عبد القادر سيد عمر ولا ننتظر أن يذكره بخير، فالأمير عبد القادر قد عرف بنبل أخلاقة وتمسكه بقيم الإسلام السامية ، فمن شهد له حتى أعداؤه بالنبل والشرف وسمو الأخلاق[26] فلا يمكن أن يرتكب هذه الفظاعة ضد النساء أو يقطع الأشجار.

الاحالات:

[1] . ينظر: شارل أندري جوليان: تاريخ إفريقيا الشمالية (تونس، الجزائر، المغرب الأقصى من البدء إلى الفتح الإسلامي 647م)، تر: البشير بن سلامة، مؤسسة تاوالت الثقافية، ليبيا، د/ط ،2011، ص138.

[2]أرشيف مديرية الثقافة لولاية عين الدفلى، اطلع عليه يوم: 20/ 01 / 2021، على الموقع الإلكتروني: www.wilaya.aindefla.dz.

[3] - عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ المدن الثلاث (الجزائر- المدية — مليانة)، دار الأمة، الجزائر، ط1، 2007، ص290.

[4] - ينظر: عبد الله ركيبي، الجزائر في عيون الرحالة الإنجليز، دار الكتاب العربي، الجزائر، د/ط، د/ت، ص 160، 238، 239.

[5] - ينظر: مارمول كربخال، إفريقيا، ج2، تر: محمد حجي وآخرون، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار نشر المعرفة، الرباط، د/ط، 1989، ص359، 360.

[6] - ينظر: أبو العيد دودو، الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان (1830- 1855)، وزارة الثقافة، المؤسسة الوطنية للنشر، الجزائر، 2007، ص184.

[7] - ترجم هذا النص الباحث والأكاديمي الجزائري أحمد منور ضمن كتابه: الجزائر في كتابات الأدباء الفرنسيين في القرن التاسع عشر، وزارة الثقافة، الجزائر، 2007، ص 53- 68. وقد استعنا بهذه الترجمة في بحثنا، فالصفحات الواردة في البحث تتعلق تحيل إلى هذا النص المترجم.

[8] . ينظر: أحمد منور ضمن كتابه: الجزائر في كتابات الأدباء الفرنسيين في القرن التاسع عشر، ص53.

[9] - de mon moulin, Alphonse Daudet: Lettres Charpentier, Paris, 1887, p227- 247.

[10] .سعيد يقطين: السرد العربي، مفاهيم وتجليّات، ص189، 190.

[11] . ألفونس دودي: في مليانة، ضمن كتاب: الجزائر في كتابات الأدباء الفرنسيين في القرن التاسع عشر، تر: أحمد منور، ص53.

[12]- في عنوان الكتاب هذا إشارة إلى "طاحونة" كان الكاتب قد اشتراها في منطقة غابية معزولة من الجنوب الفرنسي، واتخذ منها ملاذا للتفكير والكتابة، وأطلق اسمها على كتاباته التي ضمنها كتابه "رسائل من طاحونتي". ينظر: أحمد منور، الجزائر في كتابات الأدباء الفرنسيين في القرن التاسع عشر، ص53 (الهامش).

[13] . ينظر: عيسى عطاشي، قراءة نقدية لمذكرة ألفونس دودي "في مليانة"، مجلة الباحث، جامعة الأغواط، الجزائر، مج2، ع4، ص 91

[14] - ألفونس دودي: في مليانة، ص68.

[15] - المصدر نفسه، ص 64.

[16] - المصدر نفسه، ص 53، 54.

[17] - المصدر نفسه، ص66.

[18] - المصدر نفسه، ص67.

[19]- ألفونس دودي: في مليانة، ص59.

[20] - المصدر نفسه، ص66.

[21] .كان لليهود بمدينة مليانة حي خاص بهم، ويسميه أهلها زنقة اليهود، ويشير بعض كبار السن في مليانة والذين عايشوا الفترة الاستعمارية أنهم كانوا يعرفون عائلات يهودية تسكن المدينة، لكنهم غادروها بع الاستقلال مباشرة. ولا يزال إلى اليوم مكان محاط بسور شمال المدينة يقول العارفون من سكان مليانة أنه مقبرة يهودية قديمة.

[22] - ألفونس دودي: في مليانة، ص 58، 59.

[23] .ألفونس دودي: في مليانة، ص60.

[24] - المصدر نفسه، ص 61.

[25] - ينظر: عيسى عطاشي، قراءة نقدية لمذكرة ألفونس دودي "في مليانة"، ص 84- 85.

[26] - ينظر: حفناوي بعلي، صورة الجزائر في عيون الرحالة وكتابات الغربيين، دروب للنشر والتوزيع، د/ط، د/ت، ص68، 69.